

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

[البقرة: 222]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما نهى عن مناجاة الكفار، وتضمن مناجاة أهل الإيمان وإيثار ذلك، بين حكماً عظيماً من أحكام النكاح، وهو حكم النكاح في زمان الحيض⁽¹⁾.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿الْمَحِيضُ﴾: الْحَاءُ وَالْيَاءُ وَالضَّادُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، يُقَالُ حَاضَتْ السَّمُرَةُ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ أَحْمَرٌ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ النِّفْسَاءُ حَائِضًا، تَشْبِيهَا لِذِمِّهَا بِذَلِكَ الْمَاءِ⁽²⁾. والمحيض: الحيض ووقت الحيض وموضعه، والحيض هو الدم الخارج من الرحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص، ويتعلق به منع الصلاة، والصوم، وحظر الجماع، وانقضاء العدة، واجتناب دخول المسجد ومس المصحف، وقراءة القرآن، وأن تصير المرأة به في الابتداء مكلفة⁽³⁾.

(2) ﴿أَذَى﴾: "الْهَمْزَةُ وَالذَّالُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الشَّيْءُ تَتَكَرَّهُهُ وَلَا تَقْرُ عَلَيْهِ"⁽⁴⁾، والأذى، هُوَ مَا تَسْمَعُهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ⁽⁵⁾، وما يَغْمُ وَيُكَرُّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ⁽⁶⁾. وهو: اسم لما ينال النَّفْسَ مِنْ مَكْرُوهٍ⁽⁷⁾. وما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته

(1) أبو حيان، البحر للحيط: 2/176.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَيْض).

(3) الراغب، المفردات: (حَيْض)، تفسير الراغب: 1/456، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، وجبل، اللعجم الاشتقاقي: (حيض).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَذَى).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَذَى).

(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/328.

(7) الراغب، تفسير الراغب: 1/456.

دنيويا كان أو أخروياً. وَسُمِّيَ المحيضُ أذى في الآية الكريمة باعتبار الشَّرْع، وباعتبار الطَّب على حَسَب ما يذكره أصحاب هذه الصَّنَاعَة⁽¹⁾. وكلُّ ما جاء في القرآن من (الأذى والإيذاء) فمعناه الإيلام النَّفْسِي (التكْرَه)، أو البدني غير المبرح⁽²⁾.

(3) ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾: العَيْنُ وَالرَّأْيُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَحْيَةٍ وَإِمَالَةٍ، وَعَزَلَ الشَّيْءَ نَحَاهُ فِي جَانِبٍ، ورأيته بِمَعَزَلٍ وَفِي مَعَزَلٍ، أَيِّ فِي نَاحِيَةٍ عَنِ الْقَوْمِ مَعْتَزِلًا⁽³⁾. والاعتزال: العُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ، وتجنَّبه بالبدن أو بالقلب. وأصله من العزل، وهو صرف العامل عن عمله⁽⁴⁾. ومعنى ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾: أي: دعوا مجامعتهنَّ إِذَا حِضْنَ⁽⁵⁾.

(4) ﴿النِّسَاءُ﴾: النِّسْوَةُ، والنِّسْوَانُ، والنِّسْوَنُ كُلُّهُ: جملة النِّسَاءِ، لا واحدَ لَهُ من لفظِهِ⁽⁶⁾. ويقال لجماعة المرأة من غير لفظها، كالقَوْمِ في جمع المرءِ، والنِّسَاءِ: إِذَا كَثُرْنَ⁽⁷⁾. واللفظ في أصلِهِ خاصٌّ باللاتي بِلُغَنِ المحيضِ والحَمَلِ، ولذا لا تُطْلَقُ فِي الذَّوْقِ العامِّ على الصَّغِيرَاتِ قَبْلَ الحِيضِ، ثم تعمَّم في كلِّ مَنْ شَأْنُ جِنْسِهِنَّ ذَلِكَ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]. وبهذا المعنى جاء كلُّ (نِسْوَةٍ)، و(نساءٍ) في القرآن⁽⁸⁾.

(5) ﴿تَقَرَّبُوهُنَّ﴾: الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْبُعْدِ⁽⁹⁾، والاقْتِرَابِ الدُّنُو، والتَّقَرُّبِ: التَّدْنِي والتَّوَاصُلُ إِلَى إِنْسَانٍ بِحَقٍّ أَوْ قَرَابَةٍ. والقُرْبَانُ: مَا تَقَرَّبَتْ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَبْتَغِي بِهِ قُرْبًا وَوَسِيلَةً. وَمَا قَرَّبْتَ هَذَا الْأَمْرَ قُرْبَانًا وَلَا قُرْبًا. وَقَرَّبَ فَلَانُ أَهْلَهُ أَيَّ غَشِيَهَا قُرْبَانًا⁽¹⁰⁾، والقُرْبُ: وجود الشَّيْءِ فِي الْحِيزِ مَتَاحًا مَهِيًّا لِلتَّنَاولِ أَوْ الْوُصُولِ إِلَيْهِ. ومفردات هذا التَّرْكِيْبِ تدور معانيها بين القرب المكاني والزماني، والنَّسَبِيّ، وقرب المنزل. فكلُّ (لا تقربا، لا تقربوا) كناية في غالبها عن تجنُّب التَّنَاولِ أَوْ الممارسة⁽¹¹⁾،

(1) الراغب، المفردات: (أذى).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أذى).

(3) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَلَ).

(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/456، والمفردات: (عزل).

(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/328.

(6) الخليل، العين: (نسو).

(7) الأزهرى، تهذيب اللغة: (نسي)، الراغب، المفردات: (نسي).

(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نسو - نسي).

(9) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرَّبَ).

(10) الخليل، العين، الأزهرى، تهذيب اللغة، الجوهري، الصحاح: (قَرَّبَ).

(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرب).

وعليه فمعنى النهي عن التقرب للنساء منع وطئهن؛ لأنَّ معنى القُرب الدنوُّ، واستعملَ في الجامعة؛ لأنَّ فيه قِرباً⁽¹⁾.

(6) ﴿يَظْهَرَنَّ﴾، ﴿تَظْهَرَنَّ﴾، ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: "الطَّاءُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ. وَالتَّطَهُّرُ: التَّنْزَهُ عَنِ الدَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ. وَقَلَانُ طَاهِرِ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَسْ"⁽²⁾. والطُّهْرُ: نَقِيضُ الْحَيْضِ. وَطَهَّرَتِ الْمَرْأَةُ وَطَهَّرَتْ، فَهِيَ طَاهِرٌ؛ إِذَا انْقَطَعَ عَنْهَا الدَّمُّ، وَهِيَ ذَاتُ طُهْرٍ. وَتَطَهَّرَتْ، أَي: اغْتَسَلَتْ مِنَ الْحَيْضِ، وَالْإِطْهَارُ: الْإِغْتِسَالُ، وَالِاسْتِجَاءُ بِالْمَاءِ⁽³⁾.

وطَهَّرَتِ الْمَرْأَةُ خِلَافَ طَمَتَتْ. وَالطَّهَارَةُ ضَرْبَانِ: طَهَارَةُ جَسْمٍ، وَطَهَارَةُ نَفْسٍ، وَحُمِلَ عَلَيْهِمَا عَامَّةُ الْآيَاتِ. يُقَالُ: طَهَّرْتُهُ فَطُهِرَ، وَتَطَهَّرَ، وَاطَّهَرَ فَهُوَ طَاهِرٌ وَمَتَطَهَّرَ. وَالتَّطَهَّرَ: الْغُسْلُ بِاسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ⁽⁴⁾. فَالْمَعْنَى الْمَحْضِيُّ نَقَاءُ الشَّيْءِ مِمَّا يُتَأَذَّى بِهِ، ثُمَّ عُمِّمَ فِي التَّنْزَهُ عَنِ الْقَبَائِحِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ. وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّرْكِيبِ فَهُوَ مِنَ الطَّهَارَةِ بِمَعْنَى النِّقَاءِ مِنَ الْأَدْرَانِ الْمَادِّيَّةِ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَمِنِ الْمَعْنَوِيَّةِ قَبَائِحُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ⁽⁵⁾، وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي الشَّرْحِ اللَّغَوِيِّ وَالْبَلَاغِيِّ، وَفِي عُمُومِهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ: طَهَارَةِ النَّفْسِ، وَطَهَارَةِ الْبَدَنِ بِالْإِغْتِسَالِ، وَالِاسْتِجَاءِ، وَالنِّقَاءِ مِنَ النَّجَاسَةِ، وَالْقَاذُورَاتِ.

(7) ﴿فَأَتْوَهْنُ﴾: مِنْ (أَتَى - أَتَوْا - أَتَى) الهمزة والتاء والحرف المعتل ياءً، أَوْ وَأَوْا، أَوْ أَلْفًا، يَدُلُّ عَلَى مَجِيءِ الشَّيْءِ وَإِصْحَابِهِ وَطَاعَتِهِ⁽⁶⁾. فَالْإِيتْيَانُ: الْمَجِيءُ⁽⁷⁾، وَهُوَ الدَّنُوُّ وَالْقُرْبُ، يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا دَنَا مِنْ عَدُوِّهِ: أَتَيْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، وَ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [الشُّعْل: 1]، أَي: قُرْبَ وَدَنَا⁽⁸⁾، وَكُلُّ مَسِيلٍ سَهَّلَتْهُ لِمَاءٍ أَتَى، وَطَرِيقٌ مِيتَاءٌ، أَي: مَسْلُوكٌ وَاضِحٌ⁽⁹⁾. وَمِنْهُ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح: (طَهَرَ).

(3) الخليل، العين، ابن سيده، للحكم: (طهر).

(4) الراغب، المفردات: (طهر).

(5) جبل، للعجم الاشتقاق: (طهر).

(6) ابن فارس، المقاييس: (أَتَوْا).

(7) الجوهري، الصحاح: (أَتَا).

(8) الأزهرى، التهذيب: (أَتَى).

(9) ابن دريد، الجمهرة: (تَوَوَّى)، ابن سيده، للحكم: (أَتَى).

قيل: للإتيان: مجيء بسهولة، فالإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والأعراض⁽¹⁾. وتُفسر لفظة ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ في الآية الكريمة بمباشرة النساء بعد التطهر.

(8) ﴿أَمَرُكُمْ﴾: الهمزة والميم والراء أصول خمسة: أحدها: الأمر ضد النهي، وهو قولك أفعل كذا. قال الأصمعي: يقال: لي عليك أمره مطاعة، أي: لي عليك أن أمرك مرة واحدة فتطيعني⁽²⁾، وأمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها⁽³⁾، ومن العلو مع النفاذ جاء "الأمر ضد النهي" ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90] وبهذا المعنى جاء عظم ما في القرآن من الفعل [أمر] ومضارعه وأمره⁽⁴⁾، ملاك الأمر إذن أن استعمال الأمر غلب في الطلب الصادر من الأعلى إلى من دونه⁽⁵⁾. كما في الآية الكريمة.

(9) ﴿يُحِبُّ﴾: الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثبات، وأمّا اللزوم فالحب والمحبة، اشتقاقه من أحبه إذا لزمه⁽⁶⁾، أحببته نقيض أبغضته⁽⁷⁾، والحُب، والحِبُّ: الوداد⁽⁸⁾، والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيراً، وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة، كمحبة الرجل المرأة، ومحبة للنفع، كمحبة الغني للفقير، ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم. ومحبة الله تعالى للعبد: هي محبة صفة تليق بجلال الله تعالى، ومن لوازمها إرادته لنوابه، وعفوه عنه، وإنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه⁽⁹⁾، فالحب تعلق القلب بالمحبوب، وملازمته إياه مادياً أو فكرياً، وهذا تجمع وتلازم. وكل ما في القرآن من التركيب هو من الحب عدا كلمة (حبة) فهي من حب البر ونحوه والخرذل⁽¹⁰⁾.

(1) الراغب، المفردات: (أَي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَر).

(3) الراغب، المفردات: (أَمَر).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر)

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/43.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَبَّ).

(7) الخليل، العين: (حَبَّ).

(8) ابن سيده، المحكم: (حَبَّ).

(9) الراغب، المفردات: (الحب والحب).

(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حب).

(10) ﴿التَّوْبَيْنِ﴾: التَّاءُ، وَالْوَاوُ، وَالْبَاءُ، كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى الرَّجُوعِ. يُقَالُ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ رَجَعَ عَنْهُ⁽¹⁾. وفي العين "التَّوْبَةُ: الاستِحياء"⁽²⁾. وهو معنى أَصْلُ في التَّأْسِيسِ لِدَلَالَةِ اللَّفْظَةِ، إِذْ إِنَّ ابْتِدَاءَ الْأَوْبِ، وَالرَّجُوعَ الْاسْتِحيَاءُ مِنَ اللَّهِ. فَأَصْلُ تَابَ: عَادَ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعَ وَأَنَابَ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَيْ عَادَ عَلَيْهِ بِالمَغْفِرَةِ، وَتَوَبُوا، أَيْ عَوَدُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَأَنِيبُوا. وَاللَّهُ التَّوَّابُ. يَتُوبُ عَلَى عَبْدِهِ بِفَضْلِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ رَجَعَ، وَنَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ⁽³⁾.

فالتَّوْبُ: تَرَكُ الذَّنْبَ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ، وَهُوَ أَبْلَغُ وَجُوهِ الْإِعْتِذَارِ، فَإِنَّ الْإِعْتِذَارَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: إِمَّا أَنْ يَقُولَ الْمُعْتَذِرُ: لَمْ أَفْعَلْ، أَوْ يَقُولَ: فَعَلْتُ لِأَجْلِ كَذَا، أَوْ فَعَلْتُ وَأَسَأْتُ وَقَدْ أَقْلَعْتُ، وَلَا رَابِعَ لَذَلِكَ، وَهَذَا الْآخِرُ هُوَ التَّوْبَةُ. وَالتَّوْبَةُ فِي الشَّرْعِ: تَوَقُّفُ الشَّخْصِ، وَانْقِطَاعُهُ عَمَّا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الذَّنْبِ لِقُبْحِهِ، وَالنَّدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَالْعَزِيمَةُ عَلَى تَرْكِ الْمَعَاوِدَةِ، وَعَلَى التَّمَادِي فِي الْمَعَاصِي، وَتَدَارِكُ مَا أَمَكْنَهُ أَنْ يَتَدَارَكَ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالْأَعْمَالِ بِالْإِعَادَةِ، فَمَتَى اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَرْبَعُ فَقَدْ كَمُلَتْ شَرَائِطُ التَّوْبَةِ⁽⁴⁾.

✽ الْمَغْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَسْسَ الْعِشْرَةِ الْحَسَنَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَمِنْهَا بَيَانُ النَّزَاهَةِ الْبَدَنِيَّةِ فِي الْعِلَاقَةِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الطَّبْعُ السَّلِيمُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالَّتِي بِهَا يُعْمَرُ الْكُوْنُ، وَيَبْقَى نَسْلُ الْإِنْسَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَتَكَرَّرُ بِحُكْمِ بَشَرِيَّةِ الْإِنْثَى، وَهُوَ الْحِيْضُ - الدَّمُ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أَرْحَامِ النِّسَاءِ جِبِلَّةً فِي أَوْقَاتٍ مَخْصُوصَةٍ -، فَهُوَ أَذَى مُسْتَقْذِرٌ يَضُرُّ مَنْ يَقْرُبُهُ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِاجْتِنَابِ جَمَاعِ النِّسَاءِ مَدَّةَ الْحِيْضِ حَتَّى يَنْقُطَعَ الدَّمُ، فَإِذَا انْقَطَعَ الدَّمُ،

حكم مباشرة
النساء في
الحيض

(1) ابن فارس، للقايس: (توب).

(2) الخليل، العين: (توب).

(3) الأزهري، التهذيب: (توب).

(4) الراغب، المفردات: (توب)، وجبل، للعجم الاشتقاق: (توب).

واغتسلن، فللزوجة جماعةً امرأته في الموضع الذي أحله الله له، وهو القُبْلُ لا الدُّبُرُ⁽¹⁾.

وترشد الآية الكريمة إلى أنه ليس كل ما يكون موجباً للاستحياء والنُفُور ممّا هو باختيار العبد، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كَسَبٌ أو اختيار، وترشد إلى المسارعة بالتوبة، والطهارة؛ فالله يحب عباده المكثرين من الاستغفار والتوبة، ويحب عباده المتطهرين الذين يبتعدون عن الفواحش والأقذار⁽²⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

عِلَّةُ التَّغَايُرِ فِي التَّغْيِيرِ عَنْ فِعْلِ السُّؤَالِ بَيْنَ قَرْنِهِ بِالْوَاوِ وَخَذْفِهَا:

جاء فعلُ السُّؤَالِ فِي: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ ثلاث مرّات مقرونا بواو العطف، وجاء قبل ذلك أربع مرّات غير مقرونا بواو العطف، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: 189]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 215]، وقوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: 217]، وقوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: 219]، وذلك لأنَّ السُّؤَالَاتِ الأواخر وقعت في وقت واحد، فجمع بينها بواو العطف المفيدة مطلق الجمع، وأما السُّؤَالَاتِ الأولى؛ فوُضِعَتْ فِي أَوْقَاتٍ متفرقة، كما في قول الله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ كأنه قيل: يجمعون لك بين السُّؤَالِ عن الخمر والميسر، والسُّؤَالِ عن الإنفاق، والسُّؤَالِ عن كذا وكذا⁽³⁾.

فلَمَّا سَأَلُوا عَمَّا كَانُوا يَنْفِقُونَ وَأَجِيبُوا بِمَصْرِفِ النِّفْقَةِ، أَعَادُوا سؤَالَهُم بِالْوَاوِ، مَاذَا يَنْفِقُونَ فَأَجِيبُوا بِالْعَفْوِ، وَلَمَّا كَانَ السُّؤَالُ الثَّانِي

التَّفْرِيقُ بَيْنَ
السُّؤَالَاتِ
الوَاقِعَةِ فِي
وَقْتٍ وَاحِدٍ،
وَالسُّؤَالَاتِ
الصَّادِرَةِ فِي
أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ

تَنَاسُبُ
مَوْضُوعَاتِ
السُّؤَالِ مُحَسِّنٌ
لِلْعَطْفِ بَيْنَهَا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/728، ونخبة من العلماء، التفسير للميسر، ص: 35.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/178، ونخبة من العلماء، التفسير للميسر، ص: 35.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/267.

عن مخالطة اليتامى في النفقة - وهو مناسب لما قبله عطف بالواو، باعتبار أنهم إذا خالطوهم أنفقوا عليهم -؛ عطفه على ما قبله، ولما كان الثالث سؤالاً عن اعتزال الحيض كما يعتزل اليتامى، فهو مناسب لما قبله؛ إذ كلاهما سؤال عن اجتناب، عطف بالواو، وليس كذلك الأربعة الأول؛ إذ لا تعلق بينهما ولا ارتباط⁽¹⁾.

الجامع بين الجملتين في الوصل بينهما:

عطف قول الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ على قوله قبل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾، بمناسبة أن تحريم نكاح المشركات يؤذن بالتزهر عن أحوال المشركين، وكان المشركون لا يقربون نساءهم إذا كنَّ حيضاً، وكانوا يفرطون في الابتعاد منهن مدة الحيض؛ فناسب تحديد ما يكثر وقوعه، وهو من الأحوال التي يخالف فيها المشركون غيرهم، ويتساءل المسلمون عن أحق المناهج في شأنها⁽²⁾.

قضية اختيار لفظ الحيض:

المحيض في الآية في الموضعين اسم على زنة مفعّل منقول من أسماء المصادر؛ وهو "الحيض، ووقت الحيض، وموضعه"⁽³⁾، وقدر مضاف محذوف في الموضع الثاني، والتقدير: في زمن المحيض؛ لكثرة إنابة المصدر عن ظرف الزمان⁽⁴⁾، واحتمال هذه الصيغة المعاني الثلاثة من بدیع الانتقاء القرآني للألفاظ ووضعها في سياقها على الوجه الأتم الأمثل، وبيان ذلك: أن مآل اجتماع المعاني الثلاثة النهي عن نفس الحيض، وهو الدم الذي يسيل مع ما فيه من فساد ونجاسة، والنهي عن قربان موضع الحيض مدة المحيض، وعليه فيباح التمتع بالمرأة في غير هذا المكان.

مِنْ سُنَّةِ
الْمُسْلِمِينَ
مُخَالَفَةُ أَحْوَالِ
الْمُشْرِكِينَ

اِخْتِيَارُ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ لِأَلْفَافِ
الْجَامِعَةِ الْغَايَةِ
الْكَثِيرَةِ

(1) السيوطي، نواهد الأبيكار: 2/417، والخفاجي، عناية القاضى: 2/306.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/364.

(3) الراغب، للفردات: (حيض)، والزأغب، تفسير الراغب: 1/456، والرازي، مفاتيح الغيب: 6/415.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

نُكْتَةُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْحَيْضِ بِالْأَذَى:

شِدَّةُ النَّهْيِ
عَنْ قِرْبَانِ الْمَرْأَةِ
الْحَائِضِ نَهْيًا
مُعَلَّلًا

في قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ إخبارٌ عن الحيض بكونه أذى، والأذى: الشيء المستقذر، ونُكْتَةُ التَّعْبِيرِ به المبالغة في النهي والتنفير عن قربان المرأة الحائض نهياً مُعَلَّلًا، فتلقاه النفوس على بصيرة وتتهياً به الأمة للتَّشْرِيعِ في أمثاله⁽¹⁾.

فالتَّعْبِيرُ بهذا الأسلوب عن المَحِيضِ بأنه أذى يهَيِّئُ الذَّهْنَ لَأَنْ يَتَلَقَّى حُكْمًا في هذا الأذى، وبذلك تستعدُّ النَّفْسُ لِلخَطَرِ الذي سيأتي به الحُكْمُ، وقد جاء الحُكْمُ بالحُظَرِ والمنع بعد أن سبقتْ حَيثِيَّاتُهُ⁽²⁾.

تَغْلِيْمُ الْعِبَادِ
التَّحْفُظُ فِي
الْأَلْفَاظِ بِمَا لَا
يُؤْذِي الْخَلْقَ

وفي قوله: ﴿أَذَى﴾ إشارة إلى القَدَرِ على جهة الإجمال، أي: أَنَّ الْحَيْضَ شَيْءٌ يُسْتَقْدَرُ، ويؤذي من يقربه نُفْرَةً منه، وكراهة له، فتأذى منه المرأة وغيرها، وفيه إشارة إلى إبطال ما كان من التَّغْلِيْطِ في شأنه وشأن المرأة الحائض في شريعة التَّوْرَةِ⁽³⁾، وفي هذا التَّعْبِيرِ: رعاية لمشاعر المرأة، ومراعاة لحالتها النَّفْسِيَّةِ وَقَتَ الْحَيْضِ، فَقَصَدَ إلى انتقاء ما لا يَجْرَحُ مِنَ اللَّفْظِ وما يعمُّ.

فائدة تنكير لفظ الأذى:

الْأَذَى فِي الْحَيْضِ
يَعْمُّ الرَّجُلَ
وَالْمَرْأَةَ وَالْوَلَدَ

ورد الأذى مُنْكَرًا في قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ وهو جامع لمعان شتى، وليس معنى واحدًا⁽⁴⁾، فإنه لما لم يبين جهته؛ تعيَّن أَنَّ الأذى في مخالطة الرَّجُلِ للحائض يعْمُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ وَالْوَلَدَ⁽⁵⁾.

بَلَاغَةُ الْبَيِّنَاتِ فِي لَفْظِ الْإِعْتَزَالِ:

الْبَالِغَةُ فِي
التَّحْذِيرِ مِنْ
إِتْيَانِ الْحَائِضِ

لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ قَدْ يَتَحَمَّلُ الْأَذَى وَلَا يَرَاهُ مُحَرَّمًا صَرَحَ بِتَحْرِيمِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/966.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/112.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/374.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/966.

بقوله: ﴿فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾⁽¹⁾، على طريق الكناية، فالمراد بالاعتزال: التَّباعِدَ بِمَعَزِلٍ؛ كنايةً عن تَرْكِ مجامعتهنَّ⁽²⁾. ولفظُ الاعتزال أنْسَبَ للسياق؛ لكون الاعتزال قولاً مشتركاً، ويكُنَّى به عن العُدول عَنْهَا عند الفراغ، وعن مجانبَةِ ذلك المَوْضِع، وعن مجانبَتِهَا رَأْسًا⁽³⁾، فالتَّكْنِيَةُ بلفظ الاعتزال أدْعَى إلى المبالغة في التحوُّط من إتيانِ الزَّوْجَةِ في هذه الحالة، والتحذير من الوقوع فيه؛ لما يتضمَّنُه معناه من الانصرافِ والعُدولِ والتنحية.

سَرِّ تَقْدِيمِ الْأَذَى عَلَى الْإِعْتِزَالِ وَعَدَمِ الْقُرْبِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الْعِلَّةِ، وهي الْأَذَى، ثُمَّ فُرِعَ الْحُكْمُ، وهو وجوب الاعتزال، وَرَتَّبَهُ عَلَيْهَا⁽⁴⁾، فَقُدِّمَ السَّبَبُ عَلَى الْمُسَبَّبِ، وَالْعِلَّةُ عَلَى الْمَعْلُولِ جَرِيًّا عَلَى الْأَصْلِ؛ فَإِنَّ سَبَبَ الْوَصِيَّةِ بِالْإِعْتِزَالِ كَوْنُ الْمَحِيضِ أَذَى يُوجِبُ الْإِعْتِزَالَ فِيهِ⁽⁵⁾، وَلِذَلِكَ قُدِّمَ تَنْبِيْهُهَا عَلَى أَهْمِيَةِ الْإِحْتِيَاظِ مِنْهَا، وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مُضَارِّهِ، فَضْلاً عَنْ أَصَالَتِهِ فِي تَأْسِيسِ الْحُكْمِ.

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿النِّسَاءِ﴾:

النِّسَاءُ اسْمٌ جَمْعٌ لِلْمَرْأَةِ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَاللَّامُ فِيهِ عَهْدِيَّةٌ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الزَّوْجَاتُ، كَمَا يَقْتَضِيهِ لَفْظُ: ﴿فَاعْتَرَلُوا﴾ الْمُخَاطَبُ بِهِ الرِّجَالُ، وَإِنَّمَا يُعْتَرَلُ مَنْ كَانَ يُخَالِطُ، وَإِطْلَاقُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَزْوَاجِ شَائِعٌ بِالْإِضَافَةِ كَثِيرًا نَحْوُ: ﴿يَنْسَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الأحزاب: 30]، وَدُونَ إِضَافَةٍ مَعَ الْقَرِينَةِ كَمَا هُنَا، فَالْمُرَادُ: اعْتَزَلُوا نِسَاءَكُمْ فِي أَحْصَ الْأَحْوَالِ بِهِنَّ وَهُوَ الْمَجَامِعَةُ⁽⁶⁾، وَمَصْدَاقُ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الزَّوْجَاتِ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهُ، وَهِيَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

أَهْمِيَّةُ الْإِحْتِيَاظِ
مِنَ الْوُقُوعِ فِي
الْمُنْهَيِّ عَنْهُ

الْإِعْتِزَالُ يَكُونُ
عَمَّا شَأْنُهُ أَنْ
يُخَالِطَ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.

(4) ابن عادل، اللباب: 4/67.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/269، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/731.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

دلالة التعبير بلفظ القرب مجازاً:

النَّهْيُ عَنِ الْقُرْبِ
نَهْيٌ عَنِ اتِّصَالِ
مَخْصُوصٍ

الفاعل قُرْبَ من باب كَرَّمَ، ومن باب فَرَحَ، فيقال: قُرْبَ يَقْرُبُ، ويقال: قَرِبَ يَقْرُبُ، والأوَّلُ لازِمٌ، والثَّانِي متعَدٌّ، والمعنى فيهما مختلف؛ فالأوَّلُ يكون بمعنى الدُّنُوِّ، والثَّانِي كذلك، ولكنه غَلَبَ في العُرف استعمالُهُ مجازاً عَنِ التَّلَبُّسِ، أي: الاتِّصَالِ بالشَّيْءِ⁽¹⁾، وغَلَبُوا قَرِبَ المكسورَ العَيْنِ فيها دُونَ قُرْبَ المضموم؛ تفرقةً في الاستعمال⁽²⁾، بتضمُّنِ المكسور معنى التَّلَبُّسِ والاتِّصَالِ، والنُّكْةُ في النَّهْيِ عَنِ الْقُرْبِ مراداً به اتِّصَالُ مَخْصُوصٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ: المبالغةُ في الاحتياط؛ لئلاَّ يقع العبدُ فيما حُرِّمَ عليه.

سرّ العدول عن الفضل إلى الوصل:

أَهْمِّيَّةُ حُكْمِ
قِرْبَانِ النِّسَاءِ
فِي الْمَحِيضِ حَتَّى
جُعِلَ النَّهْيُ عَنْهُ
مَقْصُوداً بِالذَّاتِ

كان مقتضى الظاهر أن تكونَ جملة «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ» مفصولةً دُونَ عطفٍ؛ لأنها مؤكدة لمضمون جملة «فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ»، ومبيِّنةٌ للاعتزال، وكلا الأمرين يقتضي الفصل، فيكون بين الجملتين حينئذٍ كمالُ الاتِّصَالِ، ولكن خُوِّلِفَ مقتضى الظاهر اهتماماً بهذا الحكم؛ ليكون النَّهْيُ عَنِ الْقِرْبَانِ مقصوداً بالذَّاتِ معطوفاً على التَّشْرِيعَاتِ⁽³⁾.

علةٌ توكيد منجى القربان:

تَعْزِيزُ الْأَمْرِ
بِاعْتِزَالِ النِّسَاءِ
فِي الْمَحِيضِ

جاء النَّهْيُ عَنِ قِرْبَانِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرَنَّ»؛ تأكيداً للأمر باعتزالهنَّ، وتبييناً للمراد مِنَ الاعتزال، وأنه ليس التَّبَاعُدُ عَنِ الْأَزْوَاجِ بِالْأَبْدَانِ كما كان عند الْيَهُودِ، بل هو عدم الْقِرْبَانِ⁽⁴⁾، واجتماعُ التَّوَكِيدِ بِالْإِظْهَارِ اللَّفْظِيِّ (النَّهْيِ عَنِ الْقِرْبَانِ)، وَنُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ، وَالتَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ: تَعْزِيزٌ لِلأَمْرِ بِالاعتزال، وَتَكَرَّرَ الْحُكْمُ مع تَجَدُّدِ حَدَثِ الْحَيْضِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366-367.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

(4) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/366.

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْجَمَاعِ بِالْكِنَايَةِ:

لَمَّا كَانَ الاعتزال - كما تقدّم - قولاً مشتركاً، ويكنّى به عن العدول عنها عند الفراغ وعن مجانبة ذلك الموضع، وعن مجانبتها رأساً؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾، فكنّى عن الجماع بالقرّبان؛ لأنّ معنى القرّب الدنو، واستعمل في المجامعة؛ لأنّ فيه قرّباً، وليدلّ بمجموع الكنايتين على مجانبة مضاجعتها، وعلى جواز التمتع بها دون الفرج⁽¹⁾ المدلول عليه بقول النبي ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْجَمَاعَ»⁽²⁾، فظاهر الاعتزال والقرّبان أنّهما لا يتماسان، ولكن بيّنت السّنة أنّه اعتزالٌ وقرّبانٌ خاصٌّ⁽³⁾.

النّهْيُ
على خصوص
الجماع بسلوك
طريق الأدب في
العبارة

وهذه الجملة تأكيدٌ لحكم الاعتزال، وبيانٌ لغايته المذكورة بعد؛ وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع، ويمكن أيضاً حملها على فائدة جليّة جديدة؛ وهي أنّ يكون قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾ نهياً عن المباشرة في موضع الدّم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ يكون نهياً عن الالتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع⁽⁴⁾، بل لا يأمن نفسه من الوقوع في المحذور، فهو تنبيهه على أنّ المراد به عدم قربانهنّ لا عدم القرّب منهنّ⁽⁵⁾.

تأكيدُ الاعتزالِ
والتّنهّي عن
الالتذاذ بما
يقرب من ذلك
الموضع؛ بُعداً
عن المُقارَبةِ خوفاً
من المُؤاَفَعةِ

وجاء في هذه الجملة الأمر باعتزال النساء في المَحِيض، وهو مطلقٌ، ولكن أُريدَ منعُ اعتزالٍ مقيّدٍ؛ وهو اعتزال جماعهنّ، وجاء التّنهّي عن الاقتراب منهنّ حتّى يطهرنّ، وهو أيضاً مطلقٌ، ولكن أُريدَ منه اقترابٌ مقيّدٌ، وهو الاقترابُ منهنّ في الجماع، وكلاهما مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الإطلاق والتقييد، وفائدة هذا المجاز: تأكيدُ التّنهّي بطلب الابتعاد عن الدّواعي التي تدعو إلى ارتكاب المنهيّ عنه⁽⁶⁾.

إِطْلَاقُ النَّهْيِ
مَعَ إِزَادَةِ تَقْيِيدِهِ
طَلَباً لِبَلَابُتْعَادِ
عَنْ دَوَاعِي
ازْتِكَابِهِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.

(2) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (302) بلفظ: «إِلَّا التَّكَاحَ»، واللفظ المذكور أعلاه لفظ ابن ماجه في سننه، حديث رقم: (644).

(3) أبو حنّان، البحر للحيط: 2/178.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/419، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/139.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222.

(6) الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 669.

براعة الاحتباك في جملة الطهارة:

حُزْمَةٌ قِزْبَانِ
الْحَائِضِ مُعَيَّاةٌ
بِالطُّهْرِ وَالتَّطَهُّرِ
جَمِيعًا

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ احتباك، وهو المسمى: الحذف التَّقَابِلِيّ، والتقدير: (لا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ وَيَتَطَهَّرْنَ، فإذا طَهَّرْنَ وَتَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ من حيث أَمَرَكُمُ الله). وعبر عنه الزركشي - بالتقدير نفسه - : بأنه قول مركّب من أربعة أجزاء؛ نسبة الأول إلى الثالث، كنسبة الثاني إلى الرابع، ويُحذف من أحدهما دلالة الآخر عليه، وأيًا ما كَانَ التَّعْبِيرُ؛ فَإِنَّ مؤداه بهذه المحذوفات إلى قطعِيَّة دلالة السِّياق، وبهذا التَّقدير يعتضد القول بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطُّهر والتَّطَهُّر جميعًا، ويكون جواز الوطء معلقًا بالطهارة التي هي انقطاع الدَّم، والتَّطَهُّر الذي هو الغُسْل⁽¹⁾.

دلالة حرف الجزر ﴿حَتَّى﴾:

الْحَثُّ وَالْمُبَالَغَةُ
فِي الْأَمْرِ بِالتَّطَهُّرِ
وَالنَّقَاءِ

قول الله سبحانه: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ غاية لـ ﴿فَاعْزِلُوا﴾ و﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾⁽²⁾، وقُصِدَ إلى التَّعْبِيرِ بـ ﴿حَتَّى﴾؛ لكونها تُسْتَعْمَلُ لما كان آخرًا أو متصلاً به، فَإِنَّ لفظها يوحي بهذا المعنى؛ إِذْ إِنَّ لفظها من (الحث)، ومعناه الاستئصال والإزالة، والخلوص إلى النهاية، أي: الوصول إلى نهاية الأمر⁽³⁾، وبهذا تكون دلالتها في سياق الآية الوصولَ إلى مُنْتَهَى الطُّهر، فَإِنَّهُ أنسب لإزالة الأذى، والحث على المبالغة في التَّنْقِيَةِ، والتَّطَهُّرِ منه.

بِأَفْئِزَانِ
الطُّهْرَيْنِ؛ صَارَ
مَجْمُوعَهُمَا هُوَ
الْغَايَةُ

ولمَّا لم يقتصر على قوله: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بجعل غاية ذلك النَّهْيُ أَنْ يَطْهُرْنَ؛ بمعنى: ينقطع حيضهنَّ، وَإِنَّمَا أَرَدَفَهُ بقوله:

(1) البسيلى، التقييد الكبير، ص: 309-310، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/270، والزركشي، البرهان: 3/129.

وحقيقة الاحتباك -أو الحذف التَّقَابِلِيّ-: أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلّ واحد منهما مقابلُهُ؛ لدلالة الآخر عليه، يُنظر: الزركشي، البرهان: 3/129.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367.

(3) السَّامِرَائِي، معاني النحو: 3/35.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ ضامًا فعلَ الاغتسالِ إليه؛ صار المجموعُ هو الغاية⁽¹⁾، والجمع بين الأمرين ممكنٌ بأن يكون في النهاية حصولُ الشَّيئين⁽²⁾، فلا يجوز استباحة وطئها إلا بعد حصول الشرطين⁽³⁾.

نُكْتَةُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ فِعْلِي الطَّهَارَةِ تَشْدِيدًا وَتَخْفِيفًا:

حقيقة الطُّهر نقاء الذات، وأُطْلِقَ في عُرْفِ الشَّرْعِ على النِّقاءِ المعنويِّ؛ وهو طُهرُ الحدثِ الذي يُقَدَّرُ حُصُولُهُ للمسلم بسبب، ويقالُ: تَطَهَّرَ إِذَا اكْتَسَبَ الطَّهَارَةَ بفعله حقيقةً نحو: ﴿يُجِبُونَ أَنَّ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: 108]، أو مجازًا نحو: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82]⁽⁴⁾، ف﴿يَطْهَرْنَ﴾ بالتَّخْفِيفِ، بمعنى: يَنْقِصْنَ بانقطاع الدَّمِ، وبالتَّشْدِيدِ: يَغْتَسِلْنَ⁽⁵⁾.

إِزْدَافُ النِّقَاءِ
الْمَعْنَوِيِّ بِنِقَاءِ
الْفِعْلِ الْمَكْتَسَبِ
حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا

فالتَّطَهُّرُ بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، وهو فعلٌ مِنَ المرأةِ نفسها منسوبٌ حدوثه إليها؛ فهي التي تُشْئُهُ لَا أَنَّهُ حَالٌ طَهَّرَ بتشريع الله يعودُ بعد زوال سبب النِّجَاسَةِ الْمُؤَقَّتَةِ، فكما أَنَّ الله طَهَّرَ الملائكةَ أصلاً فقد طَهَّرَنَا معشرَ الإنسِ تشريعًا، ويكون معنى ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾: حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ لَهُنَّ بِالطَّهْرِ، ثُمَّ يَغْتَسِلْنَ استجابةً لتشريع الله لَهُنَّ بِالتَّطَهُّرِ⁽⁶⁾، والدَّلِيلُ أَنَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى فَاعِلِ هذه الطَّهَارَةِ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، والنِّتَاءُ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى فِعْلِ يَصْدُرُ مِنَ الْمَكْلَفِ، وانقطاع الدَّمِ ليس مِنَ فِعْلِ الْمَرْأَةِ؛ إِذْ لَيْسَتْ قَادِرَةً عَلَى كَفِّهِ، فَلَا يَكُونُ النِّتَاءُ إِلَّا عَلَى الْاِغْتِسَالِ بِالمَاءِ⁽⁷⁾.

تَشْرِيعُ اللهِ
تَعَالَى الطَّهَارَةَ
لِلْعِبَادِ،
وَتَطْهِيرُهُمْ
بِالتَّشْرِيعِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/419.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/615.

(3) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 310.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367.

(5) الكرمانلي، غرائب التفسير: 1/213، والزمخشري، الكشاف: 1/265.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/368، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/967، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.

(7) البسيلي، التقييد الكبير: ص: 310.

الْجَمْعُ بَيْنَ تَطَهَّرَ
الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ:
أَدْخَلَ فِي الْمَدْحِ

الطَّهَارَةُ
وَالنَّظَافَةُ مِمَّا
حَثَّتْ عَلَيْهِ
الشَّرِيعَةُ

التَّكْمُلُ الدَّلَالِي
لِقِرَاءَاتِ
الْقُرْآنِيَّةِ

طَوَّلُ حَدَثِ
التَّطَهُّرِ مَنَاسِبُ
لَطَوَّلِ مَقْطَعِ
التَّطَهُّرِينَ

والجمع بين التَّطَهُّرَيْنِ: القلبِ والبدنِ، أبلغُ، وأدخل في المدحِ من ذَكَرَ نَوْعٍ واحدٍ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ جميعاً⁽¹⁾.

عِلَّةُ تَشْدِيدِ الْفِعْلِ «تَطَهَّرَنَ»:

يقال: أَطْهَرَ، بتشديد الطَّاءِ وتشديد الهاءِ، وهي صيغة تَطَهَّرَ، وقع فيها إدغام التَّاءِ في الطَّاءِ قال تعالى: «وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا»^[الأنعام: 6] وصيغة التَّنْفَعِلِ في هذه المادَّةِ لمجرَّدِ المبالغةِ في حصولِ معنى الطُّهْرِ⁽²⁾، فموردُ تَشْدِيدِ التَّنْبِيهِ: تناوُلُهُ مقصداً إسلامياً مَكِيناً، ألا وهو النَّظَافَةُ؛ لما يترتَّبُ على ضِدِّهَا مِنْ أذى قاصرٍ ومُتَعَدٍّ.

تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ تَشْدِيدِ يَطْهَرَنَّ:

قرأ الجمهور «يَطْهَرَنَّ» بصيغة الفعلِ المجرَّدِ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «يَطْهَرَنَّ» بتشديد الطَّاءِ والهاءِ مفتوحتين⁽³⁾، والمعنى على قراءة التَّخْفِيفِ: ولا تقربوا النِّسَاءَ في حال حيضهنَّ حتَّى ينقطع عنهنَّ دم الحيضِ، وأمَّا على وجه التَّشْدِيدِ؛ فمعناه: حتَّى يغتسلنَ بالماءِ⁽⁴⁾، ويكون التَّشْدِيدُ دالًّا على أَنَّ الطُّهْرَ الأوَّلَ هو الثَّانِي⁽⁵⁾، ومجموعُ القراءَتَيْنِ دالٌّ على غاية التَّحْرِيمِ؛ وأَنَّهُ الطُّهْرُ والتَّطَهُّرُ مَعًا.

بَيَانُ مُتَشَابِهِ اللَّفْظِ بَيْنَ «الْمُتَطَهِّرِينَ»، وَ«الْمُطَهِّرِينَ»:

فَصَّلَ الدكتور فاضل السَّامِرَائِي بين قول الله تعالى في هذه الآية «وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»، وقوله في آية براءة: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ»^[التوبة: 108]، وذلك أَنَّ الآية الأولى في الطُّهْرِ مِنَ الْحَيْضِ والتَّطَهُّرِ مِنْهُ، وهو متكرَّرٌ متطاوِلٌ في العُمُرِ، فجاء به على صيغة الفكِّ؛ لَأَنَّهَا أطولُ.

(1) السَّامِرَائِي، بلاغة الكلمة، ص: 52.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.

(3) ابن الجزي، النشر: 2/259.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/383-385.

(5) البسيلى، التقييد الكبير، ص: 307.

التَّطَهَّرُ فِي آيَةِ
الْبَقَرَةِ بِدَنِّي،
وَفِي التَّوْبَةِ بِدَنِّي
وَقَلْبِي مَعًا

والتَّطَهَّرُ فِي آيَةِ المَحِيضِ أَمْرٌ بِدَنِّي بِالنَّسْبَةِ إِلَى النِّسَاءِ، فَضْلاً
عَنِ الرِّجَالِ بِاعْتِزَالِهِمُ النِّسَاءَ حَتَّى يَتَطَهَّرُوا، وَأَمَّا آيَةُ التَّوْبَةِ فَالتَّطَهَّرُ
فِيهَا مَنْظُورٌ إِلَى التَّطَهَّرِ الْقَلْبِيِّ وَهُوَ أَبْلَغُ، ذَلِكَ أَنَّهَا فِي سِيَاقِ ذِكْرِ
الْمَسْجِدِ الَّذِي اتَّخَذَهُ الْمُنَافِقُونَ ضِرَارًا، وَهَذَا مِنْ فُسَادِ الْبَاطِلِ وَسُوءِ
السَّرِيرَةِ وَدَنَسِ الْقَلْبِ، فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَدَمِ الْقِيَامِ فِي هَذَا
الْمَسْجِدِ، وَالْقِيَامِ فِيهَا أَسْسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَاءِ أَوْلَئِكَ
الْمُنَافِقِينَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الدَّنَسَةِ، رِجَالًا آخَرِينَ هُمْ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ
الطَّاهِرَةِ الْمُتَنَبِّئَةِ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَ فِيهِمْ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُجَبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: 108] ومعناه: أَنَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَبَالِغُونَ
فِي التَّطَهُّرِ، أَي: يَتَكَلَّفُونَهُ، فَهِيَ فِي التَّطَهُّرِ الْقَلْبِيِّ، وَلَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ
التَّطَهُّرِ الْبَدَنِيِّ مَعَهُ، كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ (1).
وَآيَةُ الْبَقَرَةِ فِي عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَمَّا
آيَةُ التَّوْبَةِ فَفِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَصَالَةً - وَلَا مَانِعَ مِنْ دُخُولِ
غَيْرِهِمْ تَبَعًا؛ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ
-؛ فَاسْتَعْمِلَ الْأَبْلَغُ لِلصَّحَابَةِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ طَهَارَةً ظَاهِرًا
وَبَاطِنًا، وَاسْتَعْمِلَتِ الصِّيغَةُ الطَّوِيلَةُ فِي الْمُدَّةِ الْمُتَوَالِيَةِ لِعُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ (2).

نَكْتَةُ تَغْلِيْقِ الشَّرْطِ بِ(إِذَا):

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهَنَّ﴾ تَغْلِيْقٌ لِلْإِتْيَانِ عَلَى التَّطَهُّرِ
بِ(إِذَا) الشَّرْطِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، الْمُفِيدَةِ - فِي الْأَصْلِ - الْجَزَمَ
بِوُقُوعِ مَدْخُولِهَا، فَأَفَادَ ذَلِكَ عَدَمَ جَوَازِ الْإِتْيَانِ عِنْدَ عَدَمِ التَّطَهُّرِ (3).

إِيضَاحُ الْكِنَايَةِ فِي فِعْلِ الْإِتْيَاءِ:

كُنِّيَ بِالْإِتْيَانِ عَنِ الْوُطْءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهَنَّ﴾،

آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي
عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَآيَةُ التَّوْبَةِ فِي
الصَّحَابَةِ ﷺ
أَصَالَةً

إِتْيَانُ الزَّوْجَةِ
مَتَوَقَّفَةٌ بِإِبَاحَتِهِ
عَلَى التَّطَهُّرِ

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 1882-1883/6.

(2) السَّامِرَائِيُّ، بِلَاغَةُ الْكَلِمَةِ، ص: 52.

(3) النِّيسَابُورِيُّ، غَرَائِبُ الْقُرْآنِ: 1/615.

سَلُوكُ طَرِيقَةِ
الْأَدَبِ فِي الْأَلْفَاظِ،
وَبَيَانُ أَنَّ الْمُرَادَ
بِالْقُرْبَانِ الْمُنْهَيِّ
عَنْهُ مَعْنَاهُ الْكِنَائِيُّ

دلالة الأمر
بالإتيان بين
اللزوم والإباحة

تَضَمَّنَ لَفْظُ
الْإِثْبَانِ مَعْنَى
الْقَصْدِ وَالْإِنْتِهَاءِ

وهذا الأمر يُقَوِّي أَنَّ المراد بالتطهّر الغسل بالماء؛ لأنَّ صيغة الأمر من الله تعالى لا تقع إلّا على الوجه الأكمل⁽¹⁾، والتعبير بالإتيان شهير في الكناية به عن الوطء؛ لما عُلِمَ من سلوك القرآن الكريم طريقة الأدب وعدوله عن التصريح بألفاظ الجماع ونحوها، وجاء لفظ الإتيان هنا لبيان أَنَّ المراد بالقربان المنهي عنه هو المعنى الكِنَائِيُّ⁽²⁾.

وصيغة الأمر في ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾؛ للإباحة، وليس للتحتم واللزوم، فليس الإتيان بحتم لازم عقب التطهّر؛ لأنَّ ذلك مبنيٌّ على الرغبة والطاقة، إنّما المرادُ إباحةُ الإتيان، وذلك لوقوعه عقب النهي، فهو كقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾^(الثالثة: 2)، والمقرّر عند جماعة من علماء الأصول أَنَّ الأمر بعد النهي يكون للإباحة، وخصوصًا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام⁽³⁾، والتحقق: أَنَّ الأمر بعد النهي يُرجع الأمر إلى ما كان عليه قبل النهي⁽⁴⁾، وعلى كلا الوجهين؛ فإنَّ الأمر في ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ للإباحة.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ فِعْلِ الْإِثْبَانِ دُونَ غَيْرِهِ:

جاء التعبير بلفظ الإتيان؛ لكونه يُقال باعتبار القصد، فهو أَحْصُ من لفظ المجيء الذي يقال اعتبارًا بالحصول⁽⁵⁾، ويلاحظ في دلالة الإتيان أيضًا إيصالُ الشيء إلى المنتهى⁽⁶⁾؛ ولذلك اختير لفظُ الإتيان باعتبار الإشارة إلى قصدِ الوطء، وَلِكَوْنِهِ مُنْتَهَى ما تصلُّ إليه العلاقة بين الزوجين من أعمال الظاهر.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/90.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369.

(3) أبو حيان، البحر المحیط: 2/179، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/733.

(4) الشَّنْفِيطِي، مذكرة أصول الفقه، ص: 231-232.

(5) الراغب، المفردات: (جاء).

(6) البروسوي، روح البيان: 3/211.

دَلَالَةُ خَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِنْ﴾:

في معنى ﴿مِنْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أقوال:

وَفَرَّةُ الْمَعَانِي
بِتَعَدُّ دَلَالَاتِ
الْخُرُوفِ

أولها: أنها لا ابتداء الغاية، أي: من الجهة التي تنتهي إلى موضع الحَيْض.

وثانيها: أن تكون بمعنى (في)، أي: في المكان الذي نُهيئتم عنه في الحَيْض⁽¹⁾، وحيث أَمَرَكُمُ اللَّهُ تعالى وهو الْقَبْلُ، ونظيره قول الله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4]، أي: في الأرض، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]، أي: في يوم الجمعة، وقيل: معنى ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من الوجه الذي أَدِنَ لكم فيه⁽²⁾.

وثالثها: أنها لا ابتداء الأسباب، فهي بمعنى التعليل، والمعنى: من الصِّفة التي أَمَرَكُمُ اللَّهُ وهي الطُّهْر والتَّطَهُّرُ، فتكون ﴿حَيْثُ﴾ مجازاً في الحال أو السَّبَب⁽³⁾.

ولا تعارض بين هذه المعاني، بل بعضها آخذٌ بِحُجَزِ بعضٍ.

دَلَالَةُ الظَّرْفِ ﴿حَيْثُ﴾:

﴿حَيْثُ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ظرفٌ مكانٍ مبهم مبنيٌّ على الضَّمِّ، ملازمٌ للإضافة إلى جملة تحدُّده لِيَزُولَ إِبْهَامُهَا. وقد اعتادت العربُ التَّعْيِيرَ عن معناه بِسُلُوكِ طريق الكناية والإغماض، ويكونُ فهمُهُ مُوَكَّلاً إلى فِطْنَتِهِمْ ومَعْتَادِ تَعْيِيرِهِمْ، وعليه يكونُ معنى (أمر الله) من الجهة التي أمر الله تعالى، وهو الْقَبْلُ؛ لأنَّه هو المنهَى عنه في حال الحَيْض بوصفه المكان الذي كان مصدرًا للآذَى⁽⁴⁾.

تَحْدِيدُ الْجِهَةِ
الَّتِي قُبِدَ بِهَا
نَهْيُ الْقِرْبَانِ
حَالِ الْحَيْضِ

(1) السمين، الدُّرُّ للصون: 2/422.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/90.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 2/179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369-370.

جَوَازُ اسْتِغْمَالِ
حَيْثُ مُرَادًا بِهَا
التَّعْلِيلُ

تَأْكِيدُ النَّهْيِ عَنْ
قِرْبَانِ النِّسَاءِ
حَالِ الْخِيضِ
حَتَّى كَأَنَّ الْمُنْهَيَّ
مَخْبُوسٌ

مُرَاعَاةُ الْوَطْءِ
فِي مَوْطِنِ الْوَلَدِ
وَمُجَانِبَةُ الْمَوْضِعِ
الْمَكْرُوهِ

ويحتمل أن يكون المراد بأمر الله في ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أمره الذي تضمنته الغاية بـ ﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾؛ لأن غاية النهي تنتهي إلى الإباحة، فالأمر هو الإذن، و﴿مِنْ﴾ للابتداء المجازي، و﴿حَيْثُ﴾ مستعملة في التعليل مجازاً تخيليّاً، أي: لأن الله أمركم أن تأتوهنَّ عند انتهاء غاية النهي بالتطهر⁽¹⁾.

ويحتمل أن يكون المراد بأمر الله في ﴿أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أمره الذي به أباح التمتع بالنساء وهو عقد النكاح، فـ﴿مِنْ﴾ للتعليل والسببية، و﴿حَيْثُ﴾ مستعار للمكان المجازي، وهو حالة الإباحة التي قبل النهي، كأنهم كانوا محجوزين عن استعمال الإباحة، أو حُجِرَ عليهم الانتفاع بها ثم أُذِنَ لهم باستعمالها، فشُبِّهَتْ حالتهم بحالة من حُبِسَ عن مكانٍ ثم أُطْلِقَ سراحه، فهو يأتي منه إلى حيث يريد⁽²⁾، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْإِتْيَانُ فِي مَوْضِعِ الْإِبَاحَةِ.

حَاصِلُ جَمَاعِ مَعَانِي الْحَرْفِ ﴿مِنْ﴾ وَالظَّرْفِ ﴿حَيْثُ﴾:

معاني ﴿مِنْ﴾ واحتمالات ﴿حَيْثُ﴾ المتقدم ذكرها تؤمى إلى أن قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ دالٌّ على مراعاة كل ما أمر به من أحكام النكاح ومجانبة الموضع المكروه⁽³⁾، فالمقصود أن يأتي الرجل زوجته في المكان الفطري الطبيعي، وهو القبل؛ إذ هو مكان البذر، ومنبت الإخصاب دون سواه، فليس الهدف هو مطلق الشهوة، إنما الغرض هو امتداد الحياة، وابتغاء ما كتب الله، فالله يكتب الحلال ويفرضه ليُطهر عباده، والمسلم يبتغي هذا الحلال الذي كتبه له ربه، ولا يُنشى هو نفسه ما يبتغيه⁽⁴⁾.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/179 .

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370.

(3) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/458.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/496-497.

فائدة حُشدِ الكُنَايَاتِ:

قوله: ﴿هُوَ أَذَى﴾، و﴿فَاعْتَرَلُوا لَيْسَاءَ﴾، و﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾، و﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ مِنْ الكُنَايَاتِ اللَّطِيفَةِ، والتَّعْرِضَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ، وهذه وأشباهاها في كلامِ اللَّهِ تعالى من الآدابِ الْحَسَنَةِ التي ينبغي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يتعلَّموها ويتأدَّبوا بها، ويتكفَّلوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم⁽¹⁾.

التَّخَلُّقُ بِالْأَدَبِ
الْقِرَاءَتِي فِي انْتِقَاءِ
الْأَلْفَاظِ الْحَسَنَةِ

وهذه الكُنَايَاتِ الْقُرْآنِيَّةُ تَرْبِي الدُّوْقَ وتمنَعُ عن الأَسْمَاعِ الْأَلْفَاظَ التي يجافي سماعُها الأذواقَ السَّليمةَ؛ وَكَمْ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ كُنَايَاتٍ وَمَجَازَاتٍ تَعْلُو بِمَسْتَوَى الْقَارِئِ بما لها من وضوحٍ وقصْدٍ إلى المعاني من غير خطأ في الفهم، ولا غموضٍ في الموضوع⁽²⁾، بالإضافة إلى أَنَّ سَمَوُ التَّعْبِيرِ وَبَدِيعَ الْكُنَايَةِ يَغْرِسُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ حُسْنَ الْأَدَبِ، وما أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى التَّأَسِّي بِهَذَا الْأَدَبِ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مَرْوَةَ نَفْسِهِمْ وَكَرَامَتَهُمْ⁽³⁾، فالأَصْلُ فِي الْكُنَايَاتِ تَعْبِيرُ الْإِنْسَانِ عَنِ الْأَفْعَالِ التي تُسْتَرُّ عَنِ الْعَيُونِ وتَتَأَذَّى مِنْهَا النُّفُوسُ، كَالْجَمَاعِ مَثَلًا بِالْفَاظِ تَدُلُّ عَلَيْهَا غَيْرَ مَوْضُوعَةٍ لَهَا، تَنْزُهُا عَنْ إِيْرَادِهَا عَلَى جِهَتِهَا، وَتَحَرُّزًا عَمَّا وُضِعَ لِأَجْلِهَا؛ إِذِ الْحَاجَةُ إِلَى سِتْرِ أَقْوَالِهِمْ كَالْحَاجَةِ إِلَى سِتْرِ أَفْعَالِهِمْ، فَيَتَحَرَّزُونَ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالتَّعْرِيزِ فَيُكْنُونُ عَنْ لَفْظِهِ؛ إِكْرَامًا لِنَفْسِهِمْ عَنِ التَّلَفُّظِ بِهِ⁽⁴⁾.

تَرْبِيَةُ الدُّوْقِ
وَتَوْجِيهَةُ الْعِبَادِ
إِلَى حُسْنِ
التَّأَدُّبِ

وفي التَّعْبِيرِ بِالْإِعْزَالِ، ثُمَّ اتِّبَاعِهِ بِالْقِرْبَانِ، ثُمَّ إِرْدَافِهِ بِالْإِيتْيَانِ: زِيَادَةٌ فَائِدَةٍ جَدِيدَةٍ مَعَ كُلِّ تَعْبِيرٍ وَحَكْمٍ جَدِيدٍ، وَهَذَا مِنْ إِبْدَاعِ الْإِعْزَالِ فِي الْإِطْنَابِ⁽⁵⁾.

فِي هَذِهِ الْكُنَايَاتِ
إِبْدَاعُ الْإِعْزَالِ فِي
الْإِطْنَابِ:

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/266.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 732-731/2.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/496.

(4) الجرجاني، للنتخب من كُنَايَاتِ الْأَدْبَاءِ وإرشادات البلغاء، ص: 4.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369.

بلاغة حشد المؤكّدات:

الحَثُّ على
التَّوْبَةِ، وتكرارها
كَلِّمًا أُبَيَّت
خَطِيئَةً

افتتاح التَّوكِيد بِ﴿إِنَّ﴾، ثُمَّ بتكرار الاسم الأَحْسَن ﴿اللَّهُ﴾، وتكرار الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ وتشدِيدُ صيغتي ﴿التَّوْبِينَ﴾، ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ للإشارة إلى تكثير التَّوْبَةِ من العبادِ ودوامها، والترغيب فيها، والحَثُّ عليها ما أُتِيَتْ خَطِيئَةٌ، حَتَّى وَإِنْ كانت توبة واحدة، لكنّها مستدامة، فمن يذكر المعصية ويندم عليها تائب، وَمَنْ يذكرها ويتشوّق للعودة إليها غير تائب؛ لَأَنَّهُ مصرٌّ عليها⁽¹⁾.

نكتة تقديم التَّوَابِينَ عَلَى الْمُتَطَهِّرِينَ:

الْبُعْدُ عَمَّا يَقْنَطُ
التَّائِبَ مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ تَعَالَى

وجه تقديم ﴿التَّوَابِينَ﴾ على ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾: أَنَّ التَّوْبَةَ سبب للطَّهَارَةِ، فإذا تاب العبد طَهَّرَهُ اللَّهُ تعالى⁽²⁾، وفيه تنبيه على أَنَّ اجتنابَ القاذوراتِ مَدْرَجَةٌ إلى فعل الخيرات⁽³⁾، ولئلا يَقْنَطَ التَّائِبُ مِنَ الرَّحْمَةِ، ولا يعجب المتطهِّرُ بنفسه؛ كقوله في آيةٍ أخرى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]⁽⁴⁾.

بلاغة حذف متعلقي التَّوْبَةِ والتَّطَهُّر:

شُمُولُ التَّوْبَةِ
والتَّطَهُّرِ لِكُلِّ
أَفْرَادِهِمَا

حذف متعلقي الوصفين - ﴿التَّوَابِينَ﴾ و﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ - جعل النَّفْسَ تذهب كُلَّ مذهبٍ في تقدير المحذوف؛ فيحتمل: يُحِبُّ التَّوَابِينَ مِنَ الذُّنُوبِ، والمتطهِّرِينَ مِنَ الْعُيُوبِ. والتَّوَابِينَ مِنَ الزَّلَّةِ، والمتطهِّرِينَ مِنَ تَوَهُّمٍ أَنَّ نجاتهم بالتَّوْبَةِ، والتَّوَابِينَ مِنَ الْهَفْوَةِ، والمتطهِّرِينَ مِنَ الْغَفْلَةِ⁽⁵⁾، وكلُّ ذلك وغيره - ممَّا يحتمله اللَّفْظُ ويصحُّ معناه - مراد: لَأَنَّ حذف المتعلّق مشعرٌ بالعموم.

ومعنى التَّوَابِينَ: الرُّجَاعِينَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، ومعنى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/270.

(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 113-112/1.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.

(4) ابن عادل، اللباب: 4/77.

(5) القشيري، لطائف الإشارات: 179-178/1.

الْمُتَطَهِّرِينَ: المتبرئين من حول أنفسهم وقوتهم، والتَّوَابِينَ: الراجعين إلى ما شَرَعَ بترك الذَّنْب وعدم إعادته، والْمُتَطَهِّرِينَ: بالاستنجاء بِالماء⁽¹⁾، فَالْتَّطَهَّرَ عَامٌّ فِي استعمال الماء، وعمل الصالحات، وتطهير القلوب من الذُّنُوب، والتَّوْبَةُ: اجتناب الذَّنْب⁽²⁾، وهي شاملة لِلْأَزْوَاج والزَّوْجَات على حدٍّ سواءٍ.

نُكْتَةُ إِظْهَارِ الْإِسْمِ الْأَخْسَنِ ﴿اللَّهُ﴾ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ، وَتَكَرُّرِهِ وَتَقْدِيمِهِ:

لَمَّا دَلَّ مَا فِي السِّيَاقِ مِنْ تَأْكِيدٍ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ عَزَمَ أَوْ أَحَبَّ أَنْ يَفْعَلَ بَعْضٌ مَا تَقَدَّمَ النَّهْيُ عَنْهُ؛ جَاءَ التَّعْلِيلُ بِالتَّصْرِيحِ بِالْإِسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿اللَّهُ﴾، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ مُقَدِّمًا وَمَكْرَرًا؛ تَعْظِيمًا لِلْمَقَامِ، وَتَقْوِيَةً لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ نَهْيٍ، وَتَقْرِيرًا لَهُ، وَتَنْبِيْهًُا عَلَى مَبْلَغِ أَهْمِيَّتِهِ، وَإِعْلَامًا بِأَنَّ هَذَا حُكْمٌ عَامٌّ لَمَّا يَقَعُ مِنْ هَفْوَةٍ، أَوْ زَلَّةٍ بِسَبَبِ الْحَيْضِ⁽³⁾، وَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ، وَالتَّطَهُّرِ فَهُوَ الْإِسْمُ الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِسَائِرِ صِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَإِظْهَارُهُ مُقَدِّمًا أَدْعَى لَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ فِي النَّفْسِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى كِمَالِ الْإِنْقِيَادِ لِمَا نَهَى، وَتِمَامِ الْخُضُوعِ لِمَا حَرَّمَ، وَتَجَنُّبِ مَا حَذَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَالْتَّطَهَّرُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ بَدْنِيًّا يَخْصُ النِّسَاءَ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الرِّجَالَ أَيْضًا بِوُجُوبِ اعْتِزَالِ النِّسَاءِ حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ⁽⁴⁾.

نُكْتَةُ تَكَرُّارِ فِعْلِ الْمَحَبَّةِ، وَدِلَالَةُ صِيغَتِهِ:

كُرِّرَ فِعْلُ الْمَحَبَّةِ ﴿يُحِبُّ﴾؛ لِلتَّوَكُّيدِ وَمَزِيدِ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِ التَّطَهُّرِ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِلَافِ الْمُفْتَضِيِّ لِلْمَحَبَّةِ، فَتَخْتَلِفُ الْمَحَبَّةُ⁽⁵⁾.

فَإِذَا أَحَبَّ مَنْ يَتَكَرَّرُ مِنْهُ التَّوْبَةُ بِتَكَرُّارِ الْمَعَاصِي؛ فَهُوَ فِي التَّائِبِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ زَلَّةٌ أَحَبَّ، وَفِيهِ أَرْغَبُ، وَبِهِ أَرْحَمُ⁽⁶⁾.

تَرْغِيبُ الْعِبَادِ فِي
الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ
بِالتَّوْبَةِ وَالتَّطَهُّرِ

اختلاف المحبة
باعتدالها
مقتضيها،
والحسب على
التوبة والتطهر

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 1/225.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/276-277.

(4) السامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 52.

(5) أبو حيان، البحر للحيط: 2/179، وابن عادل، اللباب: 4/78، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 3/277.

ووقع التعبير بالفعل للدلالة على أَنَّ الحبَّ من صفاتِ أفعالِ الله تعالى التي لها أسبابٌ، منها: التَّوْبَةُ، والتَّطَهُّرُ، وجاءَ الفعلُ مضارعاً؛ لأنَّه يُشْعِرُ بالاستمرار والدَّوامِ، وذلك دافعٌ على الحثِّ عليهما والترغيب فيهما.

براعة التَّذْيِيلِ بِجُمْلَةٍ الاعتراضِ:

حَثٌّ مِّنْ زَاغٍ
وَتَعَدَّى عَلَى
الرُّجُوعِ إِلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ بِالتَّوْبَةِ
وَالتَّطَهُّرِ

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ جملة اعتراضية بين: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرَ فَأَتُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿نَسْأُوكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ﴾؛ لاتصال الجُمْلَتَيْنِ في المعنى، لأنَّ الثاني بيانٌ للأوَّل، أي: فَأَتُوهُنَّ من حيث يحصل منه الحَرَّتُ⁽¹⁾، وفي ذلك تأكيدٌ لتجنب الإتيان في غير ما أمرَ الله، وحَثٌّ لِمَنْ زَاغَ فَأَتَى الأَمْرَ مِنْ غيرِ وَجْهٍ، وأخطأ وتعدَّى - بأنَّ لم يَعْتَزِلْ - على الرُّجُوعِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ بالمبالغة في التَّوْبَةِ والطَّهَارَةِ.

الترغيبُ في فِعْلِ
المَأْمُورِ واجْتِنَابِ
المَحْظُورِ

والنُّكْتَةُ في هذا الاعتراضِ: التَّرغِيبُ فيما أمروا به والتَّنْفِيرُ عما نهوا عنه⁽²⁾، وفي ذلك إشعارٌ للمؤمن بأنَّ الله غَفَّارٌ للذنوبِ لمن ارتكبها، وأنَّه سبحانه وتعالى يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الذي لا يَغْتَرُّ بطاعته، وأنَّ طهارةَ الحسِّ تُؤدِّي إلى طهارةِ النَّفْسِ، فمن كان طَهُورَ النَّفْسِ لا يقبل أن يُقَدِّمَ على أَمْرٍ مُسْتَقْدَرٍ في ذاته، تعافه الطَّبَائِعُ السَّليمةُ، والفِطْرَةُ المُسْتَقِیمةُ⁽³⁾، وفيه ثناءٌ على فاعل التَّوْبَةِ والطَّهَارَةِ⁽⁴⁾.

❁ الفُرُوقُ الْمُجْمِیَّةُ:

الإتيان واللجئ:

المجئ أعمُّ من الإتيان؛ لأنَّ الإتيان مجيءٌ سهولة، والإتيان

(1) الزركشي، البرهان: 3/58.

(2) التفنازي، مختصر اللعاني، ص: 170-171.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/734-735.

(4) البسيلى، التقيد الكبير، ص: 310.

قد يقالُ باعتبار القَصْدِ وإنَّ لم يكن منه الحصول، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول⁽¹⁾.
ويلاحظ في دلالة الإتيان أيضًا إيصالُ الشيء إلى المنتهى⁽²⁾، وملمَحُ اليُسْرِ في أمر الإتيان
بعد الطُّهْرِ بادٍ، إذ إنَّ الحديثَ عن قصد مباشرتهن بعد الطُّهْرِ وليس في الحال، ولذلك
عبّر بما يلائم القَصْدَ إليه بعد ذهاب الحدث، فضلًا عن كونه مُنْتَهَى العلاقة الحميميَّة
بين الزوجين.

(1) الراغب، للفردات: (أتى)، (جاء).

(2) البروسوي، روح البيان: 3/211.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.

مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.

ردمك : 5-54-798-9948-978

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

التقييم الدولي : 5-54-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»